الفصل الثالث

الهجاء الأخلاقى

المعايب والمثالب

« إذا هجوت فأضحك »

جرير

الضعة والهوان — الغدر — ذل الجار — امتهان النساء
بالحرفة — البخل والشح — الثقيل — الأحمق

وصف المؤرخون جزيرة العرب فقالوا إنها قاسية عنيفة ، وإن العربى عاش فيها على نضال فى سبيل العيش وكفاح فى سبيل اللقمة ، فعلى ساكنيها أن يسعوا وأن يشقوا ، لذلك كانت المنعة والقوة والبأس من أسباب الظفر فى الحياة . والقوى فيها هو الذى يحيا والضعيف يلجأ إلى القوى ويلوذ بأكنافه . وهكذا جعلوا الشجاعة والبطولة وركوب المخاوف والأخطار وتحمل المكاره واقتحام الخطوب من مزايا الرجال ، ومحامد الصفات . فلم يكن فيما يبدو لهذه الجزيرة من مثل أعلى فى نظر القوم إلا القوة ، لأنها وحدها رمز النضال وشارة القتال وكفاية المحارب . ولا يلام قوىّ إذا اغتصب أو سلب ، وإنما يلام الضعيف الحقير الذليل المظلوم . وليس فى هذه البلاد قبل الإسلام قانون يعاقب القوىّ على ظلمه ؛ ولا يفلّ الحديد إلا الحديد . ولما نشأت الدولة الإسلامية ظلّ العربى يلجأ إلى القوة والعصبية والقبيلة يعتمد على أقرانه وأبناء عشيرته وأسرته . فقد كان يرى فى الاستغاثة بالسلطان ضعفاً ومذلة . لذلك احتقر العربى أصحاب الصناعة والزراعة والتجارة . ونظروا إليهم كما ينظرون إلى وادع خائف مستقر لا يسعى إلى مغامرة ولا يخوض فى زحام . وبهذا مدحوا الشجاع البطل وذموا الجبان الخائف . واستحبوا لأنفسهم أن يموتوا على خيولهم محاربين من أن يموتوا على فراشهم حتف أنفهم راغمين .